شرح الأربعين النووية

الحديث الرابع والعشرون

إِنِّيْ حَرَّمْتُ الظُّلْمَ

اللقاء السابع والعشرون

الحديث الرابع والعشرون:

عَنْ أَبي ذرٍّ الغِفَارْي رضي الله عنه عَن النبي –ﷺ– فيمَا يَرْويه عَنْ رَبِّهِ عزَّ وجل أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِيْ إِنِّيْ حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِيْ وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمَاً فَلا تَظَالَمُوْا، يَا عِبَادِيْ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُوْنِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِيْ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فاَسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِيْ كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُوْنِيْ أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِيْ إِنَّكُمْ تُخْطِئُوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعَاً فَاسْتَغْفِرُوْنِيْ أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِيْ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوْا ضَرِّيْ فَتَضُرُّوْنِيْ وَلَنْ تَبْلُغُوْا نَفْعِيْ فَتَنْفَعُوْنِيْ، يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِيْ مُلْكِيْ شَيْئَاً يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِيْ شَيْئَاً، يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوْا فِيْ صَعِيْدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوْنِيْ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِيْ إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِيْ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرَاً فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُوْمَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ" رواه مسلم.

ترجمة الراوي:

أبو ذر، جُندُب بنُ جُنادةَ الغفاريُّ، أحد كبار أصحاب رسول الله –ﷺ–، ومن السابقين الأولين دخولا في الإسلام؛ فقد كان خامسَ رجلٍ دخل في دين الله.

قال عنه الذهبي: "وكان رأسا في الزهد والصدق والعلم والعمل، قوَّالًا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم".

كان رضي الله عنه نحيفًا طويلًا أسمرَ البشرة أبيض الرأس واللحية.

حال أبي ذر الغفاري في الجاهلية: وُلِدَ أبو ذر –رضي الله عنه– في قبيلة غفار بين مكة والمدينة، وقد اشتُهرت هذه القبيلة بالسطو على الحجاج والمسافرين وأَخْذ متاعهم، وكان أبو ذَرّ –رضي الله عنه– كحال قومه.

إسلام أبي ذر وقبيلته: في (صحيح البخاري) عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: "قال أبو ذر –رضي الله عنه–: كنت رجلًا من غفار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعم أنه نبيّ، فقلتُ لأخي: انْطَلِقْ إلى هذا الرجل كلِّمه وَأْتني بخبره. فانطلق فلقيه، ثم رجع فقلتُ: ما عندكَ؟ فقال: والله لقد رأيتُ رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشر. فقلتُ له: لم تشفني من الخبر. فأخذتُ جرابًا وعصًا، ثم أقبلتُ إلى مكة فجعلتُ لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم".

وفي (رواية مسلم)؛ "وَقَدْ لَبِثْتُ مَا بَيْنَ ثَلَاثِينَ مِنْ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ".

إلى أن لقي النبي –ﷺ– فأسلم وأسلم أخوه وأمه وعرض الإسلام على قومه فأسلم نصفهم، ولما قدم النبي –ﷺ– أسلم النصف الباقي فكان مبارك على قومه –رضي الله عنه–.

أبرز ملامح شخصية أبي ذر: الزهد في الدنيا والتخفف منها: قيل لأبي ذرٍّ –رضي الله عنه–: ألا تتخذ أرضًا كما اتخذ طلحة والزبير؟ فقال: "وما أصنع بأن أكون أميرًا، وإنما يكفيني كلَّ يوم شربةٌ من ماء أو نبيذ أو لبن، وفي الجمعة قَفِيزٌ من قمح".

دخل عليه رجلٌ ذات مرة، فجعل يقلِّب الطرفَ في بيته، فلم يجد فيه متاعًا، فقال: يا أبا ذر، أين متاعكم؟ فقال: "لنا بيت هناك، نُرسل إليه صالحَ متاعنا!" فقال: ولكن لا بدَّ لكَ من متاع ما دمتَ في هذه الدار، فأجاب: "ولكن صاحب المنزل لا يدعنا فيه!".

من أقواله: "حُجُّوا حجةً لعظائم الأمور، وصوموا يومًا شديد الحَرّ لطول يوم النشور، وصلُّوا ركعتين في سوداء الليل لوحشة القبور".

من أبرز صفات أبي ذر صِدْقُ لهجته، وعدم مداهنته في الحق، شهد له بذلك الصادقُ المصدوقُ –ﷺ– كما في السلسلة الصحيحة عن أبي ذَرّ –رضي الله عنه– قال: قال لي رسول الله: "ما تُقلّ الغبراء –وهي الأرض–، ولا تُظِلّ الخضراءُ –وهي السماء– على ذي لهجة أصدق وأوفى من أبي ذَرّ، شبيهِ عيسى ابن مريم! فاعرفوا له". أي: فاعرفوا له حقّه وقدره.

عاش أبو ذر -رضي الله عنه- ما بقي من عمره في الرَّبذة وحيدًا ما معه إلا زوجتُه الصالحةُ وشيءٌ من دوابّه في صحراء جرداء، مختليًا بربه، مستأنسًا بمناجاته، قد استوحش الدنيا وأهلَها وأعرض عن متاعها الزائل ورضي منها بما يوصله للدار الآخرة.

وفي السنة الثانية والثلاثين من الهجرة غادر الدنيا ليلقى الأحبةَ محمدًا وحزبَه رضي الله عنه وأرضاه وجميع صحابة رسول الله-ﷺ-.

منزلة الحديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هذا الحديث شريف القدر، عظيم المنزلة؛ ولهذا كان الإمام أحمد يقول: هو أشرف حديث لأهل الشام، وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث به جثا على ركبتيه.

قال الفشني رحمه الله: هو حديث عظيم رباني، مشتمل على فوائد عظيمة في أصول الدين وفروعه، وآدابه، ولطائف القلوب.

شرح الحديث:

❁"قوله فيمَا يَرْوِيهُ": الرواية نقل الحديث ❁ "عَنْ رَبِّهِ": أي عن الله عزّ وجل، وهذا الحديث يسمى عند المحدثين قدسياً، والحديث القدسي: كل ما رواه النبي -ﷺ- عن ربه عزّ وجل.

الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي -ﷺ-، ❁ يَا عِبَادِي": نداءٌ من الله عزّ وجل أبلغنا به أصدق المخبرين وهو محمد -ﷺ-، الله -تبارك وتعالى- جل في علاه، الجبار العظيم، المتكبر ذو الجلال والإكرام، رب العالمين، إله الأولين والآخرين، يخاطب الناس، يخاطب عباده بخطاب لطيف، وبخطاب رقيق فيه التودد إليهم، وفي التأنيس لهم، يقول لهم: "يا عبادي" ما قال: يا أيها الناس، ولا قال: يا معشر الخليقة، بل قال: "يا عبادي" يشعرهم بقربهم إليه، ويشعرهم بالصلة التي تربطهم به سبحانه وتعالى صلة العبودية التي هي الصلة الوحيدة بين الخلق والخالق، والتي تؤتى من المخلوق للخالق -سبحانه وتعالى-، وهي شرف عظيم، ومنزلة جليلة عظيمة، هي عز الدنيا ورفعة الآخرة أن يكون الإنسان عبدا لله -تبارك وتعالى-.

❁"إِنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ عَلَى نَفسِي": أي: إنه منع نفسه من الظلم لعباده مع قدرته، ولكنه لا يفعله؛ فضلًا منه وجودًا، وكرمًا وإحسانًا إلى عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: 44].

حرمه سبحانه وتعالى على نفسه لتمام عدله، ولكمال صفاته، فالظلم لا يصدر إلا من ناقص، ولا يتأتى إلا من قاصر، وأما الكامل الذي قد كمل في صفاته، وقد علا في شأنه، فإنه لا يحتاج إلى الظلم، ولا يلجأ إلى الظلم، بل عدله هو الذي يحقق الحكمة والمصلحة.

الله -تبارك وتعالى- لكمال عدله لا يظلم أحد من الناس: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [فصلت: 46] لا يظلم مسلما ولا يظلم كافرا: (وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) [النساء: 40] لا يظلم مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ، ولا يهضم الإنسان شيئا من حسناته، ولا ينقصه شيئا من ميزانه، بل يوفيه حقه كاملا، ويزيده من عنده أضعافا مضاعفة: (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [الأنعام: 160].

وما كان الله -سبحانه وتعالى- ليظلم أحد من خلقه مهما كان، مهما تجرأ العبد على الله، ومهما تجاوز حدود الله، ومهما ارتكب من محارم الله، فإن الله يعامله بالعدل، بل يزيد على ذلك سبحانه فيعامله بالفضل.

"وَجَعَلتُهُ بَينَكُمْ مُحَرَّمَاً": أي: إنه حرَّم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره.

والظلم نوعان: أحدهما: ظلم المرء نفسه، وأعظمه الشرك والكفر على اختلاف أنواعهما، ثم تليها المعاصي على اختلاف أجناسها، والثاني: ظلم المرء غيره، وهو المنهي عنه ها هنا؛ أي: لا يظلم بعضكم بعضًا.

والظلم جُرْمٌ عظيم، ظلم عباد الله، ذلكم الذنب الذي توعد الله صاحبه بالنكال والوبال، وبالعذاب والأخذ الشديد.

وكل ظالم سوف يلقى من يجازيه على سوء فعاله، حتى إن الله ينصف البهائم المظلومة من البهائم الظالمة، ففي مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: " لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إلى أَهْلِها يَومَ القِيامَةِ، حتَّى يُقادَ لِلشَّاةِ الجَلْحاءِ، مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ ".

وإذا كان يوم القيامة، واستضاء المؤمنون بنورهم، ظل الظالم يتخبط في ظلمات ظلمه، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، فلا تظالموا لا يظلم أحدكم غيره، فإن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة، قال النبي -ﷺ-: " اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَومَ القِيامَةِ " صحيح مسلم.

والله -تبارك وتعالى- قد يمهل الظالم ويؤخره، ولكنه لا يتجاوز عن ظلمه، قال -ﷺ- كما في الصحيح من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-: " إنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ " أي يؤخره ويمهله " حتَّى إذا أخَذَهُ " إذا حانت ساعة العقاب، وإذا حانت لحظة المآخذة: " حتَّى إذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ " ثُمَّ قَرَأَ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود: 102]. صحيح البخاري

لا ينبغي لِلعبدِ أنْ يَغتَرَّ بحِلمِ اللهِ عليه؛ فقدْ يكونُ ما عليه مِنَ الأمنِ في المعصيةِ والظُّلمِ لِنفسهِ ولغيرِه، إنَّما هو استدراجٌ مِنَ اللهِ تعالَى له، حتَّى إذا سبَقَ الكتابُ أخَذَهُ اللهُ بما قدَّمَ مِن عَملٍ، فلا يَجِدُ له مِن دُونِه وَلِيًّا ولا نَصيرًا. الدرر السنية

قال ابن عون –رحمه الله–: لما ركِبَ محمد بن سيرين الدَّين اغْتمّ لذلك فقال: إني لأعرفُ هذا الغَمَّ بذنبٍ أصبتُه مُنذُ أَربعينَ سَنة! حلية الأولياء

وفي هذا الحديثِ يُحذِّرُ النَّبيُّ –ﷺ– مِنَ التَّمادِي في الظُّلمِ، ويُعْلِمُنا أنَّ اللهَ تعالى يُملِي للظَّالمِ، ويُمهِلَ له حتَّى يَتمادَى في ظُلمِه –والعياذُ باللهِ– فلا يُعالِجُه العُقوبةَ، حتَّى إذا أخذَه لم يُفلِتْه، أي: لم يُطلِقْه، ولم يَنفَلِتْ منه. الدرر السنية

ولعِظَم عقوبة هذا الذنب، وشدة عذاب صاحبه، يوصي –ﷺ– أصحابه بأن يتخلصوا منه ما استطاعوا، عن أبي هريرة أن النبي –ﷺ– قال: " مَن كَانَتْ له مَظْلِمَةٌ لأخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه" أخرج البخاري.

الظلم عاقبته وخيمة، خسارة ووبال على الإنسان، حسرة وندامة يوم أن يأتي الإنسان يوم القيامة يظن نفسه ناجيا بين يدي الله قد جاء بأعمال كالجبال فيحبطها بالظلم، فيأخذ المظلوم من حسناته حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلوم، ووضعت على سيئاته، فرجحت كفة السيئات، فيأخذ بعد ذلك إلى النار –والعياذ بالله–: "إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا".

يا لها من عقوبة في يوم لا تنفع فيه الندامة ولا الفداء، إنما هو يوم الحساب والجزاء؛ والظلم يورث الأحقاد في نفس المظلوم على من ظَلَمه، وعلى ذلك المجتمع الذي لم يدافع عنه ولم يُنقذه ممَّن ظلمه، فتنشأ العداوات، وتتولد في القلوب أمراضها التي تفتك بالمجتمعات.

وهذا المظلوم لا بد له من أن ينتقم من ظالمه، فإن استطاع ذلك وإلَّا سلط عليه دعاء حاراً لا يرده الله ابداً، قال–ﷺ–:"واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإنَّه ليسَ بيْنَهُ وبيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" صحيح البخاري.

ستعلم يا نَؤُومُ إذا التقَينا غدًا عند الإلهِ مَنِ الظَّلُومُ

أمَا واللهِ إنّ الظلمَ لُؤمٌ وما زال الظَّلومُ هو المَلُومُ

إلى دَيّانِ يومِ الدينِ نمضي وعند اللهِ تجتمِعُ الخُصومُ

"يَا عِبَادِيْ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُوْنِي أَهْدِكُمْ":

"يَا عِبَادِيَ": كرر النداء زيادة في تشريفهم وتعظيمهم؛ ولذا أضافهم إلى نفسه.

"كُلُّكُمْ ضَالٌّ"؛ أي: غافل عن الشرائع، "إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ"؛ أي: وفَّقْتُه ومنعت عنه أسباب الضلالة، "فَاسْتَهْدُوْنِي"؛ أي: اطلبوا مني الهداية، "أَهْدِكُمْ" أدلكم على طرق النجاة في الدنيا والآخرة.

الناس مفتقرون إلى الله، محتاجون إليه، لا يقدرون على الاستغناء عنه طرفة عين، ولو للحظة واحدة، قال الله -تبارك وتعالى-: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: 15]، فجميع حوائج الناس الدينية والدنيوية كلها عند الله -تبارك وتعالى-.

أما الهداية فإنها ليست بيد أحد إلا بيد الله: "كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ".

قال ابن عثيمين: أي تائه عن الطريق المستقيم "إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ" أي علمته ووفقته، وعلمته هذه هداية الإرشاد ووفقته هداية التوفيق.

فيه الحثّ على طلب العلم، لقوله: "كُلُّكُم ضَالٌّ" ولا شكّ أن طلب العلم من أفضل الأعمال، بل قد قال الإمام أحمد - رحمه الله -: العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته لاسيما في هذا الزمن الذي كثر فيه الجهل، وكثر فيه الظن وأفتى من لا يستحق أن يفتي، فطلب العلم في هذا الزمان متأكد.

"فَاستَهدُونِي أَهدِكُم": ولكن الهداية نوعان: هداية التوفيق وهذه لا تطلب إلا من الله، إذ لا يستطيع أحد أن يهديك هداية التوفيق إلا الله عزّ وجل. وهداية الدلالة: وهذه تصحّ أن تطلبها من غير الله ممن عنده علم بأن تقول: يا فلان أفتني في كذا، أي اهدني إلى الحق فيه.

الله -تبارك وتعالى- يخاطب نبيه وحبيبه وخليله وصفيه وخير خلقه، فيقول له: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء) [القصص: 56].

ومن يضلل الله -سبحانه وتعالى- فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا، فليست الهداية إلا من الله -تبارك وتعالى-، ولهذا أمرنا في كل ركعة من صلاتنا أن نقول: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) [الفاتحة: 6].

كان حبيبنا ونبينا -ﷺ- كان يكثر في دعائه من أن يقول: "اللهم يا مقلّبَ القلوبِ ثَبّتْ قلبِي على دينِك " علم أن الهداية ليست بيده، وأن قلبه ليس في قبضته، وإنما قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فالتجأ -ﷺ- إلى ربه ليهديه سواء السبيل، فغيره من باب أولى وأحرى أحوج إلى أن يسأل الله -تبارك وتعالى- الهداية والثبات.

"يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ" حاجات الخلائق كلها عند الله -تبارك وتعالى-.

كذلك الطعام، كذلك الشراب، كذلك الكساء، [قال ابن عثيمين فيشمل الكسوتين: كسوة الجسد الحسيّة، وكسوة الروح المعنوية]. كذلك المسكن، سائر الحاجات التي يحتاجها الإنسان في حياته إنما يجدها عند الله -تبارك وتعالى- ليست بيد مخلوق مهما كان هذا المخلوق وإنما هي بيد الله -تبارك وتعالى-: إبراهيم -عليه السلام- لما وقف يخاصم قومه ويحاجهم، قال لهم: (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء: 75 - 77] من هو رب العالمين؟ (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

[الشعراء: 78 – 82] الذي بيده مقاليد الأمور، الذي بيده حاجات الخلائق الحي القيوم –سبحانه وتعالى– هو الأحق بالعبادة والإلوهية، وهو الذي ينبغي أن يتجه الخلق إليه، ويتوجهون بسؤالهم ودعائهم إليه سبحانه وتعالى.

📝لو أن الله –عز وجل– ترك عبده لمات جوعاً، فالله هو الذي يرزقه، وقد ذم الله –تبارك وتعالى– قارون حينما قال: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) [القصص:78]، فالرزق الذي يأتينا لا يأتينا من قدراتنا، ونشاطنا، وذكائنا، وجَلَدنا، وإنما الله –عز وجل– هو الذي يسوق هذه الأرزاق، فهذه الأرزاق يسوقها الله –عز وجل– للنمل، ويسوقها للحيتان في البحر، ويسوقها لصغار الدواب وكبارها مما نراه ونشاهده، ومما لا نراه ولا نشاهده، ونحن نشاهد الكثير من هذه المخلوقات من الطيور وغيرها، لسنا نحن الذين نتكفل برزقها، ولا نعطيها شيئاً، بل ندفعها ومع ذلك هي تعيش، وتأتيها أرزاقها. خالد السبت

🏵"يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاستَغفِرُونِي أَغْفِر لَكُم ":

📜قال ابن عيثمين: أي أسترها وأتجاوز عنها مهما كثرت، ومهما عظمت، ولكن تحتاج إلى الاستغفار.

⇦أي اطلبوا مغفرتي، إما بطلب المغفرة كأن يقول: اللهم اغفر لي، أو: أستغفر الله وأتوب إليه. وإما بفعل ما تكون به المغفرة، فمن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر.

📝 ابن آدم جُبل على المعصية، جُبل على المخالفة طبيعة جعلها الله –تبارك وتعالى– فيه، وليست هذه عيبا بحد ذاتها، وإنما هذا هو مقتضى حكمة الله –تبارك وتعالى– في خلق الإنسان، في صحيح مسلم عن النبي –ﷺ– قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لهمْ"

✉ولَيسَ في الحديثِ مُواساةٌ للمُنهَمِكينَ في الذُّنوبِ، وإنَّما فيه بَيانُ عَفوِ اللهِ تَعالى وتَجاوزِه عنِ المُذنِبينَ التَّائبينَ، لِيرْغَبوا في التَّوبةِ إلى اللهِ فَيَتُوبوا. الدرر السنية

📝فالذنب والمعصية ليست بحد ذاتها عيبا، لكن المطلوب من الإنسان أن يبادر بالتوبة وأن يبادر بالأوبة والرجوع إلى الله –تبارك وتعالى–: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ...) [آل عمران: 135] مباشرة دون تأخير، دون تأجيل، يسارعون إلى الاستغفار، يسارعون إلى التوبة والرجوع إلى الله: (فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ) [آل عمران: 135]،(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) [الأعراف:201]

من هو الذي يمحو هذه الذنوب؟ من الذي يسترها؟ من الذي يتجاوز عنها؟ من الذي يعفو عنها؟ أهناك أحد في هذا الكون كله يقدر على أن يغفر ذنبا واحدا إلا الله -تبارك وتعالى-: (وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ) [آل عمران: 135].

كان نبينا -ﷺ- تعرفون قدره، تعلمون مقامه، وأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان يقول عن نفسه: " إنّي لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ مائةَ مرةٍ " صحيح ابن ماجه.

عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قالَ: إن كنَّا لنعدُّ لرسولِ اللَّهِ -ﷺ-في المَجلِسِ الواحدِ مائةَ مرَّةٍ: ربِّ اغفر لي، وتُب عليَّ، إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ" صحيح أبي داود

ما أحوج العبد إلى الاستغفار، ما أحوجه إلى التوبة، ما أحوجه إلى الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى-، ما أحوجه من الندامة على ما قدمت يداه، ما أحوجه إلى أن ينطرح بين يدي الله، ما أحوجه إلى أن يتضرع ويبتهل إلى الله -تبارك وتعالى- أن يعفو عنه، وأن يتجاوز عن سيئاته.

الله -تبارك وتعالى- غفور رحيم: يقول سبحانه: "إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ" وعد من الله -تبارك وتعالى- والله لا يخلف الميعاد.

يقول الله -تبارك وتعالى- في هذا الحديث القدسي العظيم: "يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي" العباد مهما كثروا، ومهما اجتمعوا، ومهما تظافروا وتعاونوا، فإنهم لن يستطيعوا أن يضروا الله -تبارك وتعالى- في شيء أبداً، لن ينقصوه من ملكه شيئا، ولن يزيدوا في ملكه شيئا، ليس لهم من الأمر شيء أبداً، فكيف يستطيعون أن يضروا من بيده مقاليد كل شيء سبحانه وتعالى؟!

"يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِيْ مُلْكِيْ شَيْئَاً. يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِيْ شَيْئَاً".

هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم؛ فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملكٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان.

ثم يقول الله -سبحانه- في الحديث القدسي: "يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوْا فِيْ صَعِيْدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوْنِيْ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِيْ إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ" اجتمع الخلق جميعا كلهم من أولهم إلى آخرهم من الإنس والجن، أعداد هائلة لا يحصيها إلا الله، ولا تخطر على بال إنسان، لو أنهم جميعا اجتمعوا في مكان واحد، وسأل كل واحد منهما مسألته، هذا سأل الذهب والفضة، وذاك القصور والبنايات، وذاك طلب المراكب الفاخرة، وذاك طلب الملابس النفيسة؛ فإن الله -تبارك وتعالى- يعطي كل واحد مسألته،

ولا ينقص ذلك من ملك الله -تبارك وتعالى- شيئا: "إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ" أرأيت الإبرة لو غمستها في ماء البحر فبماذا تخرج من ماء البحر؟ لا تخرج بشيء منه، فهكذا حوائج الخلق جميعا إن سألوها ربهم فأعطاهم إياها كل واحد على ما يتمنى ويشتهي، فإنها لن تنقص من ملك الله شيئا أبداً.

المراد بهذا ذكر كمال قدرته سبحانه، وكمال ملكه، وأن ملكه وخزائنه لا تنفَدُ ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد، وفي ذلك حث الخلق على سؤاله، وإنزال حوائجهم به؛ قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي -ﷺ- قال: ((إنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَى لا يَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُمْ ما أنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرْضَ، فإنَّه لَمْ يَنْقُصْ ما في يَمِينِهِ)) صحيح البخاري.

ونبينا -ﷺ- لأجل هذا الأمر أرشدنا إلى العزيمة في المسألة، وألا يتردد الإنسان في الدعاء، يقول -ﷺ-: " إذا دَعا أحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ فأعْطِنِي؛ فإنَّه لا مُسْتَكْرِهَ له " لا تعلق الدعاء بالمشيئة، بل اعزم المسألة واجزم بها، فإن الله لا يتعاظمه شيء.

وكيف يتعاظمه شيء وعطاؤه كلام، ورزقه كلام: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

❁"يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا":

أمر العباد بالطاعة لا لحاجته إليها، ولا لقصور أو نقص تكمله هذه العبادة، إنما أمرهم بالعبادة لأنفسهم؛ كما في آخر الحديث: "إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا" فلا يمن العابد على الله بعبادته، ولا يمن العامل على الله بعمله، الله -تبارك وتعالى- يخاطب نبيه -ﷺ- فيقول: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6]، لا تمن على الله -تبارك وتعالى- بعملك، ولا تستكثر هذا العمل في حق الله -تبارك وتعالى-، فإن العبد مهما أطاع الله، ومهما قام بأداء الفرائض، ومهما أدى من النوافل، ومهما اجتهد في العبادات والقربات، فإنه لن يستطيع أداء شكر نعمة واحدة من نعم الله -تبارك وتعالى-.

ولو أن أحد الناس عبد الله من حين أن يولد إلى أن يموت هرما شيخا كبيرا، ثم جاء يوم القيامة لحقر هذا العمل كله في جنب الله -تعالى- وفي حق الله -تبارك وتعالى-، فحق الله عظيم، وحق الله كبير، لا يستطيع العباد أن يوفوه أبداً، فبماذا يمن الإنسان على الله؟ وعلى ما يستكثر عمله في حق الله -تبارك وتعالى-؟

النفع إنما هو للعبد والفائدة إنما هي للعبد، أما الله -تبارك وتعالى- فلا ينتفع من هذا العمل بشيء: (وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً) [آل عمران: 176] كفر الكافرين لا يضر الله، وإيمان المؤمنين لا ينفعه، وإنما النفع والضرر على العباد:

إن عملتم فعملكم سيعود إليكم، ولن ينتفع الله -تبارك وتعالى- بشيء من ذلك أبداً: (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ) [الحج: 37].

إنه سبحانه يحصي أعمال عباده، ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7، 8]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

❁"ثُمَّ أُوَفَّيكُمْ إِيَّاهَا": أي في الدنيا والآخرة، وقد يكون في الدنيا فقط، وقد يكون في الآخرة فقط.

فالتوفيه تكون في الدنيا دون الآخرة للكافر، أما المؤمن فتكون في الدنيا والآخرة جميعاً، أو في الآخرة فقط.

❁"فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا": من وجد عملا صالحا "فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ"؛ لأن الفضل لله أولا وآخرا، فهو الذي وفقك للعمل، وهو الذي أثابك على هذا العمل، هو الذي هداك إليه، وهو الذي جازاك عليه، ولهذا حين يدخل أهل الجنة يحمدون ربهم -تبارك وتعالى- فيقولون: (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ) [الأعراف: 43]، ويقولون: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) [فاطر: 34]، ويقولون: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) [الزمر: 74].

قال ابن عثيمين: أي من وجد خيراً من أعماله فليحمد الله على الأمرين: على توفيقه للعمل الصالح، وعلى ثواب الله له.

❁"وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ": من وجد خزيا وندامة، من وجد فضائح وقبائح، من وجد عقابا ونكالا، "فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ": فإنه هو الذي جنى على نفسه، وهو الذي أوردها المهالك، وهو الذي أوقعها فيما صارت إليه.

الشيطان الذي يوسوس للإنسان ويزين له سوء عمله يتبرأ منه يوم القيامة: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) [إبراهيم: 22].

(فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم) هو الذي وسوس، وهو الذي زين، وهو الذي زخرف، وهو الذي أغوى، وهو الذي أضل، ومع ذلك يتبرأ من الإنسان ويقول له: (فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم) فالإنسان رقيب على نفسه، والإنسان حسيب على عمله، واليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

من رأى نفسه تفعل شرًّا فلا يعترض إلا عليها؛ حيث إنها آثرت شهواتها ومستلذاتها على رضا خالقها ورازقها، فكفرت بنعمه، ولم تذعن لأحكامه، فاستحقت أن يعاملها بظهور عدله، وأن يحرمها مزايا جوده وفضله، والله أعلم.

حديث عظيم، حقا على كل واحد منا أن يحفظ كلماته، وأن يتدبر معانيه: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ".

المراجع:❶حول حديث أبي ذر الغفاري: علي باوزير.

❷شرح حديث: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي: عبدالعال سعد الشليّه.